كلود ليفي- ستروس والتحليل البنيوي للأسطورة

Cloud Levi Strauss And the structural analysis of myth

Study abstract

أ.م.د يحيى خيرالله عودة الجامعة المستنصرية/كلية الآداب/قسم الانثروبولوجيا والاجتماع

الملخص

رغم الصرامة العلمية التي اتسمت بها البنيوية كمنهج عام واتجاه طال أغلب العلوم الإنسانية قبل أكثر من 70 سنة إلا أن ثورة الرواد الأوائل لم تخلُ من مجازفات نظرية في ذلك الحين، فقد عمد أكثر البنيويين إلى محاولة القفز على المنهج البنيوي بعد أن اعتقدوا بضرورة التعامل النظري مع مناهج أخرى أكثر واقعية.

وهذا لا يعني أن البنيوية لم تكن واقعية إلا أنها كانت بعيدة عن الواقعية العملية وقريبة جدا من التنظيريات الافتراضية. فإن عوامل عدة من قبيل الغموض المنهجي، وانعدامية المعنى، والاهتمام المتطرف بالتركيب والبناء، والتحليل المتكلف في مقاربة النصوص، جعل من المنهج البنيوي أداة للمغايرة المنهجية على نحو كبير.

ورغم كل تلك الإخفاقات إلا أن المنهجية البنيوية تبقى من أرصن المناهج العلمية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين وقد تزعّمها رواد كبار وباحثين مرموقين، إن من أهم مزايا المنهج البنيوي هو: قدرته الفائقة على التحليل النصي مهما كان من التعقيد أو الغموض، وكذلك قابليته على بعث رؤية جمالية بلمسات الباحث الفنان.

أن هاتين الصفتين هي ما دفعا رغبتي العارمة على استنطاق الرؤية البنيوية من جديد في بحث أحد أهم الموضوعات غرابة في العلوم الإنسانية وهو موضوع (الأساطير). لقد تضمنت هذه الدراسة البحثية على **ستة محاور** وهدفت إلى بيان

واضح بأن الأسطورة ليست مجرد حكاية أو رواية تُحكى من دون معنى أو قصدية وأنّ ليست ثمة روابط علائقية أو سببية بين أحداثها، بل بيّنت هذه الدراسة بأن الأسطورة عبارة عن منهج حياة وتنظيم عام للمجتمع ورؤية في تسيير الحياة الإنسانية عن طريق استخراج المعنى المندفن في ذات الأسطورة واستنطاق مخزونها المعرفي من خلال إعمال المنهج النبيوي.

وقد تطرق البحث إلى بيان موضوع الدراسة وأهميتها وهدفها وتناول المحور الأول أهم المفاهيم الخاصة بالبحث من قبيل الأسطورة واللغة والنسق أو البناء، وقد كان المحور الثاني يتعلق بطبيعة المنهجية المتبعة في هذه الدراسة وهو المنهج البنيوي الذي يقوم على اكتشاف العناصر العميقة/البسيطة/ الأولية والتي تعد الأساس الأولي لكل بناء فوقي.

أما المحور الثالث فقد ارتبط بتفسير مفهومي اللغة والكلام واللذان يعدان من أبرز المصطلحات العلمية المستخدمة في الدراسات البنيوية على نحو عام، أما المحور الرابع فقد عمد إلى بيان المائز بين المحورين: التزامني والتزمني، على نحو مبسط، وهما محورين مركزيين في هذا البحث وأن مسالة التفريق بينهما يعد المفتاح الأساس لفهم طبيعة المنهجية البنيوية في دراسة الأسطورة.

وقد تركز المحور الخامس حول وحدات اللغة ووحدات الأسطورة وقد قمنا بتفسيرهما وبيانهما على نحو مسهب من أجل إعطاء نظرة عامة في التعريف بهما والوقوف على دلالتهما، وأخيرا فإن المحور السادس ارتبط عمليا بتحليل محتوى الأسطورة تحليلا بنيويا من خلال إعمال حيثيات المنهج ذاته وتطبيقه على الدراسة الأسطورية.

Cloud Levi Strauss And the structural analysis of myth

Study abstract

Despite scientific austerity, that structucturalism is charaerisedby as a general procedure used by most human sciences more them to years ago, revolution of pioneers partly in clouded theoretical at the time. Most structure lets tried to overlook the structural procedure because they thought it was necessary to deal with other more realistic procedures.

This does not mean that structuralism was notdown-to-earth, yet it was far from practical reality and very close hypothetical theories. Several factors such as ambiguous approach, absence of meaning, extreme care in structure and building and artificial analysis in approaching texts made structural approach a tool for distinct procedure.

Despite all those failures, structural procedure remains one of the gravest scientific procedures that appeared in the second half of the twentieth century and pioneered by prominent researchers. One of the most advantages of the structural procedure is its extreme ability to analyze text however complex or ambiguous and the ability to show beauty with the touch an artist.

These two characteristics are behind my overwhelming desire to examine structural vision again in researching one of the strongest and most important subject in human sciences, which is myth. This research has six important foci and aimed at a clear statement that myth is not just a fable narrated meaninglessly and that there is no connection between its events. This study has shown that myth is a life approach, general organization of the society and a vision is conducting human life through getting the embedded meaning its cognitive storage through using the structural procedure.

The research also discussed the topic of the study, its importance and its goal. The first focus discussed the most important concepts

related to the research, like the myth, language, coordination and structure. The second focus discussed the nature of the approach used in this study, which is the structural procedure, which is basic aspects, which is considered the basis for what comes next.

The third focus is connected with the explanation of the concepts of language and such, which are considered the most prominent scientific terms used in structural studies in general. The fourth focus shows the difference between synchronal and present time. In a simplified way. They are centralfocus in this research and distinguishing nature of structural procedure in the study of myth.

The fifth focus is about the units of language and those of a myth, which we explained extensively to give a general look in defining them and show what, they refer two. Finally, the sixth focus is practically connected with analyzing the content of myth structurally through using the procedure itself and applying it to mythical study.

مقدمة

يعود الفضل لـ "كلود ليفي-ستروس Claude Lévi-Strauss" في تطبيق المنهج اللغوي البنيوي على موضوعات الأنثروبولوجيا كـ "الأسطورة" و"القرابة"، منطلقا من إن المنهج اللغوي المباشر أعطى المفتاح لفهم العلوم الإنسانية، وانحصر هم "ستروس" الأساسي في إدخال الموضوع المدروس في مجال نسقه البنيوي، لأن حقيقة واقعة اجتماعية لا تتمثل في ظاهرها بل تكمن في مستوى دلالي أعمق.

لقد كرّس "ليفي ستروس" كثيرا من أعماله اللاحقة لتحليل الأسطورة؛ حيث نجد تأثير النموذج الألسني لا يزال حاضرا وعميقا، إلا أن "ستروس" يعمل هنا مستخدما ضروبا من القياس والمماثلة مهلهلة ورخوة إلى حدٍ بعيد. فهو ينظر إلى الأساطير المختلفة، التي تحكيها شعوب مختلفة في القارة الواحدة، بوصفها جزء من اللسان

الواحد، ودليلا على أصناف أو مقولات كونية. وبمعنى ما فإن هذه الرؤية مهلهلة ورخوة شأن عمليات السبر التي قام بها "يونغ Carl Jung" للوعي الجمعي)Collective consciousness[1]، وأن تكن أقل مقروئية منها. ووصف "ليفي ستروس" عمله بأنه أسطورة عن الأسطورة يبدو صائبا إلى حدٍ بعيد.

وعلى الرغم من ضخامة واتساع أعمال "ليفي ستروس" في ميدان الأسطورة، إلا أنها تتّبع بصورة أساسية مبادئ التحليل التي وردت في مقالته المكتوبة عام 1955 "**الدراسة البنيوية للأسطورة**" فقد أهتم "ليفي ستروس" طوال حياته بالأدب والأساطير، وتعاون مع "رومان جاكبسون Roman Jacobson" [2] في تحليل بنيويّ للأدب، وأشهر مثال على ذلك هو تحليلهما قصيدة بودلير "القطط"[3]، حيث يبدو "جاكبسون" شريكا مسيطرا، ذلك أن التقنية التحليلية المستخدمة شديدة الشبه بتقنيته الخاصة التي استخدمها في تقطيع أوصال سونيتة[4]لـ "شكسبير" ليكشف ما فيها من تقابلات قواعدية وصوتية فضلا عن دلالتها المفترضة.

أما تقنية "ليفي ستروس" الخاصة فتظهر من خلال تحليله لأسطورة أوديب التي سيأتي تناولها لاحقا ضمن مجريات التحليل البنيوية لهذه الأسطورة التي تعد من أبرز أعماله الأولى تطبيقا للمنهج البنيوي. لقد جمع "ليفي ستروس" في كتابه "أسطوريات" قصص كثيرة من أماكن متباعدة من أميركا والمناطق المدارية، ورغم أن هذه الأساطير تنتمي إلى أنساق أسطورية عديدة فإنها مترابطة، بل ويمكن اعتبارها جسدا واحدا.

إن الروابط الداخلية بين الأساطير ذات أهمية كبيرة، أنها علاقات منطقية تم تكوينها بين وحدات مكونة لقصص مختلفة، وقد استخدم "ليفي ستروس" بعض المصطلحات لوصف هذه العلاقات بين الوحدات الأسطورية مثل التماثل والعكس والتكافؤ والوحدة والتطابق والتشاكل وغيرها. فالأساطير قد تزود الإنسان بصورة كلية عن العالم الذي يعيش فيه أو كما يقول "مالينوفسكيBronisław Kasper Malinowski"

[5] تزوده بصكوك للنشاط الاجتماعي، أو حسب "ليفي ستروس" بنماذج منطقية تكون قادرة على قهر التناقضات التي يواجهها في الواقع.

إن هذه الدراسة إذ تعتمد على استخدام المنهج البنيوي فإنها في المقابل لا تتغاضى عن إتباع طريقة التبسيط في محاولة منها من أجل تسهيل مفاهيم القراءة البنيوية التي طالما ما تكون عصية على الفهم لأغلب الهواة وغير المتخصصين، حتى أن الباحثين الدراسين لعلوم الإنسان والمجتمع يواجهون صعوبات جمّة في فهم هذا المنهج وتطبيقاته. فلا بد إذن -ووفقا لهذه الدراسة-من إتباع أسهل الطرق وأبسطها في تحليل وتفسير المنهج البنيوي في دراسة الأساطير، ولا يخفى علينا جميعا أن المفهومات البنيوية تواجه حالة من عدم الاهتمام بسبب الضعف الحاصل في عملية الفهم وعدم القدرة على الهضم.

أن الوحدات الأسطورية التي ذكرناها آنفا من قبيل التماثل والتعاكس أو التطابق والتشاكل يمكن إيجازها على نحو تعريفي أكثر وفقا لما قاله "ليفي ستروس" إذ يذكر في مقال له طويل هذه الحادثة: "فقد اخبرتني أمي أنه عندما كنتُ في حوالي الثانية من العمر وكنتُ ما زلت غير قادر على القراءة -وهذا أمر طبيعي-زعمت أنني أستطيع القراءة بالفعل وعندما سُئلت: لماذا؟ قلت بأنني عندما انظر إلى لافتات الحوانيت والمحال التجارية التي كُتب عليها كلمات مثل خباز أو قصاب (جزار) أكون قادرا على قراءة شيء ما وذلك ما كان متشابها بطريقة واضحة -ومن وجهة نظر خاصة بالكتابة والخطوط -في الكتابة لم يكن من الممكن أن يعني شيئا آخر غير المقطع bou وهو المقطع الأول في كلمتي قصاب boucher وخباز boulanger بالفرنسية"[6].

موضع البحث وأهميته وهدفه:

يمكننا أيجاز مشكلة البحث وموضوعه وأهميته وأهدافه البعيدة بما يأتي:

موضوع البحث:

تتناول الدراسة واعتمادا على حيثيات ومبادئ المنهج البنيوي تحليل البنى العميقة للوحدات الأسطورية كالتماثل Similarity والتكافؤ Equality والوحدة Unity والتطابق Conformity والتشاكل Restructuring وغيرها، وأن هذه الوحدات لا يمكن أن توجد عند مستوى الصوت أو مستوى الكلمة، لكنها توجد عند مستوى الجملة، وأن يتم إعمال الطريقة الاختيارية بالمحاولة والخطأ مع الاستعانة بالمبادئ الضرورية لأي تحليل على مستوى البنية.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في النقاط التالية:

1- إذا كان هناك معنى موجود في الميثولوجيا (علم الأساطير Mythology) فإنه لا يكمن في العناصر المنعزلة التي تدخل في تكوين الأسطورة، ولكن في الطريقة التي يتم بها تركيب هذه العناصر.
2- رغم أن الأسطورة تنتمي إلى نفس الفئة التي تنتمي إليها اللغة، فإن اللغة في حقيقة الأمر تكون جزءا فقط منها.
3- أن الخصائص النوعية للغة يمكن أن توجد فقط فوق المستوى اللغوي المعتاد، أي أنها تكشف عن ملامح أكثر تعقيدا من تلك التي يمكن أن توجد في أي نوع آخر من التعبير اللغوي.

هدف البحث:

يمكننا الوقوف على أهم الأبعاد الفكرية للبحث -ستراتيجيا-وفقا لما يأتي:

1- تهدف الدراسة إلى معرفة الباحثين والقرّاء بأن الأسطورة ليست عبارة عن حكاية أو قصة ذات عناوين خرافية وأن ليس ثمة ما يجعلها تترابط وفق تسلسل منطقي أو علائقي بل أنها ذات محتوى تفكيري يمكننا الوقوف عليه

من خلال عمليات التأسيس النظري/البنيوي، فمن خلال إعمال المنهجية البنيوية سوف يتضح لنا مديات الترابط المنطقي بين الأحداث المختلفة في الأسطورة الواحدة أو الأساطير المتنوعة من نفس الوحدة الأسطورية.

2- أن استعمال المنهج التحليلي/البنيوي في الأسطورة هو محاولة صائبة وذات مصداقية عالية من أجل إفراز المعاني الحقيقية داخل الشرنقة الدلالية للأسطورة، أي التوافق بين المنهج والموضوع توافقا علميا ودلاليا.

3- تهدف هذه الدراسة إلى أعطاء البحث التاريخي /القصصي قيمة متميزة في الحاضر وحتى في المستقبل من خلال توظيف المعرفة البنيوية المتمثلة بالقدرة التزامنية للأسطورة، وأن الأسطورة نفسها هي ماضي وحاضر ومستقبل وليس مجرد حكاية قديمة قيلت، أو حلم قديم تمت روايته، بل أنها عبارة عن تصورات في المفهوم الجمعي وقيم وعادات وسلوكيات عملت على تخليق المبادئ النشؤية.

المحور الأول: مفهومات البحث

لا بدّ لكل دراسة من استعراض أهم المفهومات الخاصة بموضوعاتها وذلك جريا على تسهيل القواعد العامة للدراسة نفسها، وكان لزاما علينا إعطاء تعريفات إيجازية ونبذ محددة عن بعض المفاهيم، إذ أن معرفة المفهوم على نحو سليم يعزز القيمة الابستمولوجية للمفهوم من جهة، ومن جهة أخرى يمنح المفهوم بعدا انطولوجيا، أن حالة المعرفة والتطبيق التي أشرنا إليها من الناحيتين الابستمية والانطولوجية تجعل من الباحثين على دراية واضحة لحقيقة المفهوم وصدقية المعنى، أن عدمية الفهم تعني -بشكل آخر- تسريب التطبيق أو عدم بناءه علميا وبالتالي قد نعاني من إشكاليات كبيرة في مسألتي التفسير والتحليل.

الأسطورة: Myth

تشير كلمة أسطورة إلى ما يمكن تصديقه أو إلى ما هو خيالي وغير واقعي إلى أبعد الحدود. وتضفي الكلمة إلى ما تضفي عليه من معاني الافتراء وعدم الجدارة بالتصديق، إلا أن هذا المفهوم لم يكن هو المعنى المقصود عند الإغريق الذين صاغوا وابتدعوا المصطلح. ففي البداية كانت الكلمة اليونانية Mythos[7] تعني الشيء المنطوق أو الشيء المعبر عنه شفويا أي الحدث أو الرواية.

وقد أخذ هذا المجال الفسيح يضيق بالتدريج إلى أن تحدّد معنى الكلمة بدلالتها على رواية متعلقة بالآلهة أو أشباه الآلهة. ولما كانت الأقاصيص عن أولئك الخالدين تزخر بالخوارق والمعجزات التي كان يؤمن أصحابها مما تعجز العقلية الحديثة عن قبوله أو تفسيره فقد اكتسبت الكلمة معناها الشائع الآن. فكلمة (Myth) تعني في وقتنا هذا أسطورة قصصية أو روائية. أما كلمة أسطورة في العربية فتشير الى شيء ممكن تاريخيا وإن كان مستبعدا. في حين أن الأسطورة الروائية تشير إلى شيء مستحيل وإن أعتقد البعض بصحته وجواز حدوثه[8].

اللغة: Language

هي القدرة على اكتساب واستخدام نُظم معقّدة من الاتصالات والتواصل بين البشر، لا سيّما بسبب قدرة الإنسان على استخدام تلك الأنظمة المعقّدة، فهي نسق من الإشارات والرموز "signs and symbols"، وأداة من أدوات المعرفة، وتعتبر اللغة من أهم وسائل التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة. وبدون اللغة يتعذر نشاط الناس المعرفي. وترتبط اللغة بالتفكير ارتباطًا وثيقا؛ فأفكار الإنسان تصاغ دومًا في قالب لغوي، حتى في حال تفكيره الباطني "أن اللغة التي هي أداة الإنسان الأولى للعقل، تعكس الميل إلى صنع الأسطورة أكثر منه إلى العقلنة والتفكير العقلي. فاللغة التي هي ترميز للفكر تعرض نمطين مختلفين تماما من الفكر، الذي هو في كلتا الحالتين فكر قوي إبداعي. فهي تعبّر عن نفسها في شكلين مختلفين؛ أحدهما المنطق

الاستدلالي الاستطرادي، والآخر الخيال الإبداعي. ويبدأ الذكاء الإنساني مع التصور، الذي هو الفاعلية العقلية الأولى؛ وتبلغ عملية التصور دائما أوجّها في التعبير الرمزي، إذ أن التصور لا يثبت ولا يحتفظ به إلا حين يتجسد في رمز. وهكذا فإن دراسة الأشكال الرمزية تقدم مفتاحا لأشكال التصور الإنساني"[9].

ومن خلال اللغة تحصل الفكرة فقط على وجودها الواقعي. كما ترمز اللغة إلى الأشياء المنعكسة فيها، فاللغة هي القدرة على اكتساب واستخدام نظام معقد للتواصل وخاصة في قدرة الإنسان على القيام بذلك, فهي أحد الأمثلة المحددة من هذا النظام.

النسق/البناء: system/structure

ترتبط فكرة النسق system ارتباطا وثيقا بمفهومات البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية، فهي في أبسط معانيها تشير إلى قيام هذه الوحدة الشاملة التي تتألف من عدد كبير من العناصر والمكونات المتفاعلة على الرغم من كثرتها وتعقدها وتناقضها في كثير من الأحيان. فهي بذلك تقتضي ضرورة التسليم بأن كل جزء أو عنصر من العناصر الداخلة في تكوين "الكل" -أيا كان ذلك الكل- يؤدي وظيفة معينة بالذات من شأنها الإسهام في تماسك هذا الكل. فهي إذن تشير على ما يقول عالم الاجتماع الأميركي الشهير "تالكوتبارسونزTalcott Parsons" [10] إلى وجود نوع من التساند أو الاعتماد المتبادل الذي يهدف إلى تحقيق وظائف معينة أيضا بين عدد من الأفراد أو الزمر الاجتماعية الذين يقومون بأدوار مرسومة محددة.

لقد أدى كل ذلك إلى الاهتمام بفكرة "النسق" كفكرة مكملة ومرتبطة أشد الارتباط بمفهوم البناء الاجتماعي، على أساس أن المجتمع نفسه يؤلف نسقا طبيعيا مكونا من أجزاء متفاعلة ومتساندة ذلك التساند الوظيفي الذي يميز الكل المتكامل المتماسك[11].ومهما يكن من أمر فإننا نستخدم هنا كلمة النسق بمعناها البنيوي

البسيط أو بالمعنى الأولى الذي يكون على أساس أنه يمثل البنية الأولية لكل ظاهرة اجتماعية أو نظام اجتماعي.

وهذا ما نقصده أيضا بمفهوم "نسق الأشياء the order of things" وذراتها ذات المعاني البسيطة جدا والتي لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها إلى أشياء أصغر فهي وفقا لهذا المفهوم تمثل -إلى حد ما- أبسط القضايا التي لا يمكن النظر فيما وراءها من قضايا أصغر، أن هذا التدليل الصغرى هو نوع من المحاكاة النظرية ليس إلا، بمعنى أنه من إبداعات التفكير الآني وليس حقيقة يمكننا تقبلها أو الجزم بها، فقد يصح أن يأتي من يقول بوجود بُنى أولية غاية في الصغر ويعمل على أساس ذلك تنظيراته اعتمادا على هذا المعنى الجديد، ومهما اختلفت طبيعة البنيات الصغرى فإن منهج التحليل البنيوي يبقى صامدا.

المحور الثاني: المنهج البنيوي

ان البنيوية ليست مذهبا بل هي منهج، لقد تكرر هذا القول كثيرا، إذ لا يمكن للمرء أن يصبح بنيويا بالطريقة التي كان يمكن له أن يصبح بها وجوديا[12]. فليس ثمة نواد ليلية بنيوية على الجانب الأيسر من "نهر السين[13]"، وليس ثمة ملابس بنيوية تُرتدى أو أسلوب حياة يُتّبع. لأن البنيوية ما هي إلا منهج بحت، طريقة معينة يتناول بها الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل معين من حقول المعرفة بحيث تخضع هذه المعطيات - فيما يقول البنيويون- إلى المعايير العقلية.

1-البنيوية الألسنية (اللغوية)

ترتبط البنيوية في هذا المجال بعالم اللغويات الفرنسي الشهير "فرديناند دي سوسيرFerdinand de Saussure"[14]، وتعتمد كل المناهج الفرعية للبنيوية ضمن مجموع الاختصاصات والمجالات الأخرى حول اكتشافاته المذهلة في علم اللغة وتحديدا مفهوم "الرمز sign" اللغوي. لقد حلل "سوسير" الرمز إلى مكونين: الصوت أو المكون

الصوتي، ودعاه بالدال signifier، والمكوّن الذهني أو الفكري ودعاه المدلول signitied. فالدال يشكل هنا الجانب المادي من اللغة؛ وهو ما يعبّر عنه باللغة المحكية، بمعنى: أي صوت يلفظ وله معنى. أما المدلول فهو الجانب الذهني من اللغة، وهو جانب كثيرا ما نعتبره غير مادي. ولا يمكن فصل الدال عن المدلول من الناحية العملية ولكن نظريا يجوز ذلك من قبل المنظر اللغوي[15]. تشكل هذه المصطلحات الثلاثة (الرمز ومكونيه معا) ما يسمى بـ"قاموس الدلالة".

أما التمييز السوسيري الثاني فهو التمييز بين محوري البحث المتزامن synchronic والمتتابع diachronic. فمن الممكن أن ندرس اللغة حسب محورين مختلفين تمام الاختلاف، اذ يمكننا ان ندرسها باعتبارها نظاما يؤدي وظيفته في لحظة من اللحظات أو باعتبارها مؤسسة تطورت عبر الزمن. وكان "سوسير" نفسه يحبّذ دراسة اللغة بوصفها ظاهرة متزامنة في مقابل الدراسات التي كان يقوم بها سابقوه من لغويي القرن التاسع عشر[16].

لقد قدم "سوسير" خمسة مبادئ منهجية عامة في الألسنية، وسوف نقتصر على ذكرها تبعا لأهميتها:

أ-اللسان والكلام: يشير "سوسير" الى ضرورة التمييز بين النظام اللغوي (اللسان langue)، والتكلم باللغة وكتابتها (parole).

ب- التزمني والتزامني؛ التاريخ مقابل البنية.

جـ- اعتباطية المدلول: مفاده أن اللغة ترى على أفضل وجه بوصفها نظام دواليل، حيث يعرف الدالول بأنه ارتباط اعتباطي في جوهره بين دال ومدلول.

د – البنية التقابلية للغة: أي أن اللغة مجموعة من التقابلات والأنظمة الثنائية.

هـ- أسبقية الكلام على الكتابة: هذا التمييز لا يشكل معلما أساسيا في نظرية "سوسير" بل ضربا من أجل رصد لوقائع العالم[17].

البنيوية الأنسنية:

تتبدى آثار أفكار "سوسير" حول اللغة أكثر ما تتبدى في أعمال "ليفي ستروس" الذي صرح بأن "سوسير" هو أحد اثنين من أثروا في حياته الفكرية تأثيرا خلاقا. وقد درس "ليفي ستروس" الظواهر الانثروبولوجية كما لو أنها لغات، أي بوصفها نظما مثل نظام القرابة، ونظام الطوطمية، ونظام الأساطير.

وركز همّه على العلاقات القائمة بين الوحدات المختلفة لكل نظام، وكيف أن وظيفة محددة لوحدة ما تختلف بعدها من حيث وظيفتها حينما تدخل في علاقات مع غيرها من الوحدات. وهذا ما دعاه الى دراسة معنى الرمز في الأسطورة ضمن شبكة من العلاقات التي تتضمنها تلك الأسطورة. معنى ذلك: "أن تفسّر الأسطورة من داخلها، أن يسمح للنظام ذاته أن يملي معناه عليك"[18].

لقد لعبت اللغة دورا مركزيا في انثروبولوجيا "ليفي ستروس" كما لعبت ذات الدور في أفكار كل من "بارت Roland Barthes" و"فوكو Paul-Michel Foucault" و"دريدا Jacques Derrida" و"لاكان Lacan Jacques"، حتى ليمكن القول أنهم جميعا مهووسون بها وبطبيعتها المؤسسية وبقدرتها اللامتناهية على الخلق. يقول "ستروس": "أننا نجد أنفسنا نحن الأنثروبولوجيين في وضع حرج بإزاء الألسنيين، فقد اشتغلنا معهم طيلة سنوات عديدة، جنبا إلى جنب، ثم بدا لنا فجأة أن الألسنيين أخذوا يتملصون منا، فرأيناهم ينتقلون إلى الجهة الأخرى من الحاجز ... إننا نريد أن نتعلم من الألسنيين سرّ نجاحهم"[19].

أن ما يتم التشديد عليه هنا هو تلك القوة الملهمة التي تنطوي عليها رؤيا الترتيب والنظام الفكريين التي توفرها الألسنية. لقد كان "ليفي ستروس" شديد التأثر

بالألسنية التي تعلمها من محاضرات "جاكبسون" ثم اتبعها بقراءة مكثفة. وعمل "ستروس" على نشر مقالات وبحوث كثيرة أوضح فيها جميعا طبيعة استخدام النماذج الألسنية في الانثروبولوجيا، والتي كانت تنطوي على تحليل رفيع ومتكلف يتطلع إلى ما هو أبعد من مجرد استيراد التقنيات الألسنية لتحليل مكونات الأنظمة الثلاث[20] التي عُنيّ بدراستها.

المحور الثالث: اللغة والكلام

أن مفهوم البنية لا يستنفذه الواقع الظاهري التجريبي، فهو يرتبط بنماذج بنيتها الداخلية أو بنسق علاقتها المتقابلة، ففي مجال علم اللغة ميز "دي سوسير" بين اللغة language والكلام Parole، حيث "اللغة هي النظام النظري للغة من اللغات أو بنيتها، هي مجموعة القواعد التي ينبغي على متكلمي تلك اللغة أن يلتزموا بها إذا أرادوا الاتصال فيما بينهم. أما الكلام فهو الإستخدام اليومي لذلك النظام من قبل المتكلمين الأفراد"[21]. "لقد اعتبر سوسور أن موضوع دراسة الالسنيين هو نظام اللغة أو بنيتها، أو ما أطلق عليه اسم اللسان langue، ووضعه مقابل فعالية التكلم بهذه اللغة، أو ما أسماه بـ الكلام parole، وبذا قدم سوسور نموذجا لكل النظريات البنيوية اللاحقة"[22]. وقد كان لذلك التمييز أثر كبير في الأعمال البنيوية حيث نجد لديهم تلك التفرقة بين البنية والحدث أي بين الأحداث والقواعد التي تتحكم في هذه الأحداث وأيّهما أسبق وجوداً البنية أم الحدث.

وحسب "ستروس": فأن الأسطورة لغة وكلام، "**لغة**" لأنها تتعلق ببنية خارج التاريخ. و"**كلام**" لأنها تصاغ وفق أحداث تاريخية. وللأسطورة –أيضا- مستوى ثالث تتميز به عن اللغة، وهذا المستوى الثالث هو -كذلك- طبيعة لغوية ولكنه متميز عن المستويين الآخرين: "إن المستوى الثالث يجعل كل من يقرأ الأسطورة يفهمها على أنها أسطورة تختلف عن باقي أشكال الكلام الأخرى. فالأسطورة تظل أسطورة في نظر أي قارئ!!".

بعبارة أخرى: إن اللغة تنتمي إلى مجال زمن قابل للارتداد (زمان مرتجع/ بنية دائمة)، والكلام إلى مجال زمن غير قابل للارتداد (زمن لا رجعة له). إذن تم التمييز بين اللغة والكلام بواسطة أنظمة زمنية يرجعان إليهما كلاهما، فاللغة هي بناء بينما الكلام هو حدث إحصائي. كذلك إن القيمة الذاتية التي تعزى للأسطورة تنجم عن إن هذه الأحداث التي يفترض بها أن تكون قد حدثت في لحظة معينة من الزمن تشكل في الوقت نفسه بنية دائمة[23].

إذن اللغة قواعد ثابتة/ بنية Structure، هذه القواعد هي التي تجعلنا أن نمارس خاصية الكلام الذي هو عبارة عن (أحداث من العبارات Events of Phrases) فعندما أقول مثلا: (إن زيدا نائم) نلاحظ إن هذه الجملة تتضمن خاصية البناء أي أنها جملة مبنية على مجموعة من الألفاظ والأصوات والتراكيب بشكل متسق ومنظّم بحيث جعلها هذا البناء المتسق والمنظم جملة مفهومة لكل من يقرأها. كذلك أن هذه الجملة لها خاصية الحدث (الكلام) بمعنى أنها كلامٌ منطوق أو مجموعة من الأصوات المنطوقة (حدث إحصائي) أو حدث قد نطقتُ به وأصبح ماضيا.

هذا التفريق الأول بين اللغة والكلام يقودنا إلى التفريق الثاني بينهما وهو أن اللغة بما أنها "بنية" فهي تنتمي إلى مجال زمن مرتجع؛ ماذا يعني هذا؟ بمعنى: إن البنية ليس لها تاريخ أو زمان ماضٍ يمكن أن تنتمي إليه، فإنها قد كانت موجودة في الماضي ووجدت في الحاضر وسوف توجد في المستقبل. فليس ثمة زمن يحتويها أو يحتضنها لأن البنية في كل هذه الأزمان هي نفسها تعيد إنتاج ذاتها بنفس تلك القواعد، أن الاسطورة عند "ليفي ستروس": "تشير دائما إلى وقائع يزعم أنها حدثت منذ زمن بعيد لكن ما يعطي الأسطورة قيمتها العلمية هو أن النمط الخاص الذي تصفه يكون غير ذي زمن محدد، أنها تفسر الحاضر والماضي وكذلك المستقبل"[24].أما الكلام -بما أنه حدث منطوق أو التحقق العيني لتلك القواعد- فهو ينتمي -أي الكلام- إلى مجال زمن غير مرتجع وهو

الزمن الماضي الذي لا رجعة عنه. وهنا فقد تم التمييز بين اللغة والكلام بواسطة أنظمة زمنية يرجعان إليهما كلاهما.

يقول "ليفي ستروس" إن الأسطورة لغة وكلام...كيف ذلك؟ هي لغة لأنها عبارة عن "قواعد أو بنى" تتحكم فيها، وبما أنها بنية فهي تنتمي إلى مجال زمن مرتجع (لا يمكن أن يحتضنها زمن). وكذلك إن الأسطورة هي كلام لأنها تحتوي أو تصاغ أو تتضمن أحداث تاريخية قديمة، وبما أنها عبارة عن مجموعة من الأحداث التاريخية فهي تنتمي أيضا إلى مجال زمن غير مرتجع وهو الزمن الماضي.

لكن ما يهم "ستروس" هو بنية الأسطورة أو القواعد التي تشكلها. فإن القول على إن الأسطورة (بنية) هو قولٌ صحيح ويمكن أن تكون (كلام)، إلا إن الإهتمام بأحداث الأسطورة (الكلام) لا يفيدنا في شيء، فما يهمنا -طبقا لتعاليم المدرسة البنيوية- هو البناء العميق الذي ينظم هذه الأحداث وليس الأحداث ذاتها، كما أن من طبيعة المنهج البنيوي التركيز على القواعد العميقة والبناء الذي يقف وراء تلك الأحداث.

وبإيجاز؛ أن الأسطورة لها مستويين: مستوى اللغة (مستوى البنية)، ومستوى الكلام (مستوى الحدث). ولها أيضا مستوى ثالث، وهذا المستوى الثالث يتعلق بطبيعة الأسطورة من حيث تميّزها عن باقي أشكال القول الأخرى. بمعنى: أن القارئ عندما يقرأ قصة أو رواية معينة يستطيع أن يميّزها، فهل هذه القصة أو الرواية عبارة عن أسطورة أم لا؟! أي أن الأسطورة معروفة من خلال أحداثها الأسطورية والخارقة[25]. وفي الدراسات البنيوية نهتم فقط بالمستوى الأول (البنية)، ولا نهتم كثيرا بالمستويين الثاني والثالث.

أن التمييز بين اللسان والكلام، باعتباره تمييزا بين بنية لغة ما والأشياء المحددة التي يمكن أن تقال بهذه اللغة، يبقى اليوم أساسيا بالنسبة للألسنية كعلم وبالنسبة لتعلم اللغات، كما كان أساسيا قبل أن يلفت "دي سوسير" الانتباه إليه بآلاف السنين[26].

المحور الرابع: المحور التزامني والمحور التزمني

إن التمييز الذي قام به "دي سوسير" والذي يعتبر تحولاً في دراسة اللغة وقطيعة مع التقليد اللغوي الذي كان سائداً في عصره هو تفريقه بين محورين لدراسة اللغة: المحور التزامني Synchronic، والمحور التزمني أو التتابعي Diachronic. أما عن المحور التزامني لدراسة اللغة: فهو يدرس اللغة على اعتبار أنها نظام يؤدي وظيفته في لحظة ما دون وجود اعتبارات للزمن. أما المحور التتابعي (التزمني) فهو يدرس اللغة باعتبارها نظاماً يتطور عبر الزمن ويرصد التغيرات التي تطرأ على اللغة تاريخياً[27]. ويرفض "دي سوسير" المنظور التتابعي قائلا: إن معرفة تاريخ الكلمة لن يفيد في تحديد معناها الحالي ويشبه الأمر أن يشاهد الشخص مشهداً ثابتا بينما هو يتحرك، قائلاً: بأنه من الأفضل له أن يثبت في مكانه حتى يتمكن من رؤية المشهد بشكل واضح فحركته لن تفيد في فهم طبيعة المشهد نفسه.

والبحث المتزامن: هو دراسة اللغة باعتبارها نظاما يؤدي وظيفته في لحظة من اللحظات، أي حالة التلفظ بها وعدم الالتفات إلى تاريخيتها، أما البحث المتتابع فيقصد به أن اللغة مؤسسة تطورت عبر الزمن، وهذا يعني الاهتمام بتاريخ اللغة وبأصول مفرداتها وما طرأ على أصواتها من تغيّر، فـ"البنيوية ذات نظرة متزامنة بالضرورة، وإن الأسطورة لا موقع لها في التسلسل الزمني، ومن خصائصها غياب التمييز بين الطبيعة والثقافة".

"ان الأسطورة تشتمل على الزمن القابل للإعادة وأيضا الزمن غير القابل للإعادة irreversible، ولغتها لها خصائص التزامن والتتابع التي أكدها دي سوسير. إن زمن الأسطورة يمكم تمثيله في ضوء ذلك كما يأتي:

الزمن القابل للإعادة = الزمن البنيوي= اللغة = التزامن

الزمن غير القابل للإعادة = الزمن الإحصائي = الكلام = التتابع

والأسطورة تشتمل على هذين الزمنين وتتضمن هاتين الخاصيتين المتعارضتين فكل أسطورة يمكن أن يوجد زمنها الخاص على بعد التزامن-التتابع، ومن ثم فهي تمتلك خاصية اللغة (التزامن) وخاصية الكلام (التتابع) والأسطورة هنا شبيهة في رأي ليفي ستروس بالمدونة الموسيقية عندما تتم قراءتها بشكل متأنٍ: من خلال التتابع (من الشمال إلى اليمين وصفحة وراء صفحة) ومن خلال التزامن (من أعلى إلى أسفل)[28].

إلا أن الأسطورة -كما قلنا آنفا- تتحدد بنظام زمني وتزامني، بالماضي والحاضر والمستقبل، ولها بنية مزدوجة تاريخية وغير تاريخية معا (يعني خارج التاريخ-بنية). ففي الأسطورة إن العلاقات التي تنشأ عن رزمة واحدة قد تظهر متباعدة من زاوية التزمن (الزاوية التعاقبية)، ولكن لو توصلنا إلى إعادتها إلى زمرتها "الطبيعية" وتجمعها "الطبيعي" فإننا نتوصل في الوقت نفسه إلى تنظيم الأسطورة بناءً على نظام مرجعي زمني من نمط جديد يلبي مقتضيات الفرضية التي انطلقنا منها فهو تعاقبي (تزمني) وتزامني معا.

ومعنى ذلك: إن العلاقات الخاصة بكل باقة أو رزمة عمودية هي علاقات متباعدة زمنيا، فكل علاقة قد تبتعد عن العلاقة الأخرى بفترة زمنية فاصلة، هنا الأسطورة قد تحددت بنظام زمني بالماضي. أما إذا عملنا على تنظيم هذه العلاقات في الرزمة أو الباقة الواحدة في وحدة علائقية كبيرة وشددنا بعضها ببعض فإننا سوف نحصل على معنى جديد تكشف عنه هذه العلاقات المتباعدة عن بعضها زمنيا. إن عملية الكشف الجديد في بلورة العلاقات وتجميعها مع بعضها البعض يؤدي إلى تنظيم الأسطورة بناء على نظام زمني من نمط جديد هو النظام التزامني! إن الترتيب العمودي للرواية في تجميع العلاقات في وحدة إئتلافية كبيرة هو ما يقصده "ستروس" بالمنهج التزامني، حيث استطعنا من خلال ذلك الحصول على نظام زمني من نوع جديد. فالتمييز بين المحورين في الأسطورة يتعلق أساسا بمسألة تجميع العلاقات المنفصلة والمتباعدة من

عدم ذلك، فقراءة هذه العلاقات بصيغتها المنفصلة هي قراءة تزمنية، أما قراءتها من حيث تجمعها هي قراءة تزامنية.

إن الاهتمام بوظيفة اللغة كنظام لا يستدعي التركيز على بحث اللغة تاريخيا أو البحث في أصول المعاني وتطورها، فالمحور التزامني يؤدي مهمة آنية وحاضرة ولا يلتفت إلى طبيعة النظام من حيث جذوره التاريخية. فهو يلغي التاريخ والأحداث لعدم الاقتناع بضرورته في التعريف بالنظام. أما المحور التزمني فهو يهتم في البحث عن تاريخ النظام اللغوي والتغيرات الحاصلة فيه عبر الزمن. والبنيوية اللغوية لا يعنيها أصلا المحور التزمني لأنه يخالف طبيعة المنهج (المنهج البنيوي). إن ما يكون مهما في الدراسة البنيوية هو النظر إلى المحور التزامني باعتباره يؤدي وظيفة مهمة في استنطاق حاضر النظام. فاللغة على مستوى البنية ترتبط بالمحور التزامني فكلاهما -مستوى البنية والمحور التزامني- ينتميان إلى مجال زمن مرتجع أو قابل للارتداد، فمستوى البنية هو القواعد الخاصة بالنظام والمحور التزامني هو الوظيفة التي يؤديها ذلك النظام.

إضافة إلى ما سبق يؤكد "ليفي ستروس" أن الأسطورة تشتمل على مرجع زمني ثالث يضم خصائص الزمنين السابقين (التزامني أو المتأني والتتابعي أو المتتالي). فالأسطورة تشير دائما إلى وقائع يزعم أنها حدثت منذ زمن بعيد. لكن النمط الذي تصفه يكون بلا زمن Timeless، فهو يفسر الحاضر والماضي وكذلك المستقبل، وجوهر الأسطورة لا يكمن في أسلوبها أو موسيقاها أو في بنيتها ولكن في القصة التي تحكيها، فالأسطورة لغة يتم تنشيطها عند مستوى مرتفع بشكل خاص وتتابع فيه المعاني بشكل يجعل الخلفية اللغوية لها في حالة حركة دائمة[29].

أما "جاكبسون" وآخرين فقد أبدوا ارتيابا حيال الفصل الكامل بين التزامني والتزمني. وأشار "جاكبسون" إلى أن الأشكال القديمة والحديثة قد تتواجد جنبا الى جنب في لغة ما، بل أنها قد تظهر في كلام شخص واحد. والحقيقة أن "جاكبسون" منذ عام 1926

فصاعدا كان يراود فكرة مفادها أن التغيرات الألسنية هي تغيرات "نظامية وغائية، وأن تطور اللغة وتطور الأنظمة الاجتماعية الثقافية يشتركان في هذه الغائية"[30].

المحور الخامس: وحدات اللغة ووحدات الأسطورة

تتألف اللغة من وحدات صوتية وصرفية ودلالية... أما الأسطورة فهي تتألف من وحدات من نوع أرفع من الوحدات التي تتألف منها اللغة، ولولا ذلك لما أمكن تمييزها عن باقي أشكال القول. فالوحدات الصوتية في اللغة تتمثل على مستوى الدال، أما على مستوى المدلول فأنها تتعلق بـ الناحية الدلالية.

إن الوحدات الحقيقية المؤلفة للأسطورة ليست هي العلاقات المنعزلة عن بعضها، بل رزم علاقات (الوحدات التكوينية السمينة) أو الوحدات المؤلفة الكبيرة gross constituent units كما سنبيّن ذلك. إن الوحدات المؤلفة الكبيرة في الأسطورة لا تكتسب وظيفة دالة إلا بشكل تركيبات هذه الرزم (باقة من العلاقات) وهذا هو الفارق بين وحدات اللغة ووحدات الأسطورة والتي كما قلنا عنها آنفا بأنها من نوع أرفع من الوحدات اللغوية[31].

ويرى "ستروس": إن الأسطورة مبنية على سلسلة طويلة من التقابلات كاللغة، كذلك أنها تحتوي على عمليات كتلك التي تمارس في الظاهرة اللغوية من قبيل التمثيل والتشبيه والإسقاط والتضاد والاستعاضة والتبديل والتحويل، وقد نحت "ستروس" مصطلح الـ "Mytheme" ليدلّ به على العناصر الدنيا للأسطورة على غرار مصطلح "Phoneme"[32] وهو أصغر وحدة صوت في اللغة.

"ويؤكد ليفي شترواس دائما أن تحليل الأسطورة يتجاوز تحليل مسمياتها أو مضمونها أو حدودها، وأنه يركز على الكشف عن العلاقات التي توجد بين كل

الأساطير، ولقد أصبحت هذه العلاقات موضوعات أساسية في تحليله البنيوي الذي استهدف الكشف عن الأبنية الموحدة لهذه الأساطير"[33].

وتحليل الأساطير يتحرك بشكل أفقي، إلى الأسطورة المشابهة لها وليس بشكل رأسي (أي من الأسطورة السابقة إلى الأسطورة اللاحقة) المشترك لهذه الشبكات من العلاقات كما يقول "ماكويJ.Maquet" قد يعبر عنه من خلال كلمة (التشاكل Isomorphism) أو "وحدة الشكل" والتعريف القاموسي للتشاكل هو بالمعنى المنطقي؛ التشابه في الشكل، وبالمعنى الرياضي؛ يشير إلى الاتفاق بين كل عنصر وعنصر آخر داخل إحدى المصفوفات الرياضية[34]. إن مفهوم التشاكل كمفهوم محوري لدى "ليفي ستروس" لا يقتصر دوره على اكتشاف العلاقات التشاكلية بين الأساطير أو داخل الأسطورة الواحدة، بل يمتد به "ليفي ستروس" ليحاول من خلاله إيجاد علاقة بين العقل المتحضر والعقل البري.

ماذا يعني وعي الأسطورة..؟!

إن كل مجتمع يعبّر في أساطيره عن المشاعر الأساسية كالحب والحقد والانتقام أو عن محاولات لشرح الظواهر التي يشق فهمها: فلكية أو رصدية، فما يهتم به "ستروس" في تناوله للأسطورة -كما في تناوله أي موضوع آخر- هو ما تتميز به الظواهر الجمعية من طبيعة لا واعية unconscious ، فهو يسعى مثل "سيغموند فرويد Sigmund Freud" إلى كشف المبادئ الكونية التي تفعل فعلها في أدمغتنا كما في أدمغة هنود أميركا الجنوبية.

إن دراسة الأساطير تقودنا إلى مشاهدات متناقضة، وأنّ تتابع الأحداث فيها لا يخضع لأية قاعدة من قواعد المنطق أو الاستمرار بحيث تختلط فيها الأحداث وتتناغم بطريقة غير مرغوب فيها أو لا حقيقية. إذ تجد في الأسطورة كائنات من نوع نصف بشرية ونصف حيوانية، ووقائع خيالية، وانعدامية مؤقتة أو دائمية للسببية المنطقية في تعاقب الأحداث، ورمزية عالية لا يمكن فهمها بسهولة.

يقول "ليفي ستروس" أن دراسة الأساطير "كانت تجربة جمالية ومثيرة أيضا، والسبب يعود إلى كون هذه الأساطير تبدو في الوهلة الأولى وكأنها أحجية. إن هذه الأساطير تحكي قصصا دون أن يكون لها رأس أو ذيل، ومليئة بحوادث سخيفة، ولكن كان عليّ "تفقيس" تلك الأساطير في أيام وأسابيع أحيانا لمدة شهور قبل أن تنطلق شرارة ما فجأة وبشكل متعذر تفسيره، ولتكشف أمامي كمًا من التفاصيل بشكل يصعب تفسيرها في أسطورة أخرى. وبهذا الشكل المناسب كان يتم تجميعها كوحدة واحدة. التفاصيل في ذاتها لا تسعف على الوصول إلى أي معنى، وإنما في علاقتها المفصلية يمكن الكشف عن جلاء معاني الأسطورة[35].

والأسطورة قد تتكرر بنفس الخصائص في مناطق مختلفة في العالم (أي أنها تتشابه)، إن هذا التشابه في الأساطير يمكن مقارنته بالتشابه الذي يحصل في اللغة، وهو يتوقف على وعي الأسطورة بنفسها. إذ إن دراسة الأوجه الشمولية للأساطير البدائية تكشف دوما إن الرسالة الدفينة معنية بحل تناقضات غير مرغوب فيها. إن "ليفي ستروس" ليس معنيا بالوعي الجمعي في أي نظام اجتماعي محدد وما يسعى إلى كشفه هو "اللاوعي الجمعي" لـ "العقل البشري"، يقول "ستروس": نحن لا ندّعي بيان الطريقة أو الكيفية التي يفكر بها الناس في الأساطير، وإنما نبيّن كيف تفكر الأساطير في ذاتها من خلال الناس دون وعي منهم، بمعنى: كيف تعمل الأساطير في عقول الناس دون وعي منهم لهذه الحقيقة.

إن محصلة ما تقوله كل الأساطير معا لا يقال بصورة واضحة من قبل أي منها، وإنّ ما تقوله على هذا النحو (مجتمعة) هو حقيقة شعرية تمثّل تناقضا غير مرغوب فيه، وإن وظيفة الأساطير هي أن تظهر إلى العلن مفارقات لا واعية. ففي "أسطورة أوديب OedipusMyth"[36] وتنويعاتها المختلفة ما تفصح عنه ظاهرا: لكي يستمر المجتمع فإنّ على البنات ألّا يخلصن للوالدين، وعلى الأبناء أن يقضوا على آبائهم (ويحلوا محلهم).

وهنا يكمن التناقض غير المرغوب فيه أو الحقيقة التي نخفيها عن وعينا، لأن ما تنطوي عليه يتعارض تماما مع أسس الأخلاق الإنسانية.

هذا يعني أن المعنى الظاهري الذي تفصح عنه الأسطورة ليس هو المعنى الحقيقي، وإن معنى الأسطورة إنما يتجسد من خلال وعي الأسطورة بنفسها أو عن طريق وعينا بالمعنى المندفن في الأسطورة. إن التناقض بين الحياة الاجتماعية والمعنى الظاهري للأسطورة هو ما يدفعنا للبحث عن المعاني الدفينة التي تختبئ وراء الحدث الأسطوري.

فالقصص الأسطورية تبدو بطريقة تحكمية بلا معنى وعبثية، ومع ذلك فإنه يبدو أنها تعاود الظهور في مختلف أنحاء العالم. إن الإبداع الخيالي للعقل في مكان ما يكون فريد أو أنك لن تجد الإبداع نفسه في مكان مختلف تماما، وقد كانت مشكلة "ليفي ستروس" في محاولته الجريئة على اكتشاف ما اذا كان يوجد ثمة نظام يربض خلف هذه الفوضى البادية.

يرى "ليفي ستروس" من خلال عمله في مجال الأساطير بأن قصة واحدة بحد ذاتها لا يمكن أن تأسس أسطورة، فاصالة أسطورة معينة تتطلب من الباحث أن يأخذ بعين الاعتبار جميع الأشكال التي بدت عليها هذه الأسطورة وفي أمكنة متعددة. وأنه مهما تعقد العلم البحثي في الأسطورة فإنه من الصعب التوصل إلى معنى واحد ونهائي، بمعنى آخر أنه من الصعب الإدعاء بوجود معنى واحد ونهائي للأسطورة. إن الأسطورة توفر لنا مثلها مثل الحياة محاولات للتوصل إلى معاني مختلفة وصورا للعالم وللمجتمع وللتاريخ التي تحوم على عتبات وعي الإنسان الذي يسعى للتساؤل حولها[37].

المحور السادس: تحليل الأسطورة

إذا كانت الأسطورة تنطوي على معنى فلا يمكن أن يكون هذا المعنى متعلقا بعناصر معزولة عن بعضها البعض بل يكون بالتنسيق بين هذه العناصر. فهناك فرق بين أن

نروي الأسطورة وبين أن نفهمها، ويرى "ستروس" أن الأساطير يجب أن لا تحلل واحدة واحدة بل بوصفها جزء من مجموعة أساطير مترابطة.

إذ تُدرس كل أسطورة بالتحليل والمقارنة من حيث علاقتها بروايات عديدة لنفس الأسطورة أو أساطير أخرى متعددة، هذا يعني إن الأسطورة تتألف من مجموعة قراءاتها المختلفة لذا على التحليل البنيوي أن يدرسها كلها بالطريقة ذاتها. يقول ستروس: لقد عمدنا إلى إثبات إن البنية التزامنية-التزمنية التي تميّز الأسطورة تسمح بترتيب عناصرها في متتاليات تزمنية (صفوف Rows) يجب أن تقرأ تزامنيا (الأعمدة Columns). ويرى نقّاد "ستروس" إن في تحليله للأساطير جعل فكرة الاستغناء عن المعنى "أمرا ممكنا" إلا أنه يرفض ذلك.

يطرح "ستروس" مثال يبيّن من خلاله تقليده البنيوي للمعالجة: لو أن شخصا أراد أن يوصل إليك رسالة، وكنت واقفا في الجهة المقابلة للجهة التي تقف فيها، إلا أنك لا تستطيع فهم كامل محتوى الرسالة بسبب ضجيج السيارات والمارّة، وقد أعاد عليك قراءة الرسالة نفسها أكثر من مرة، وفي كل مرة تفقد الرسالة التي تسمعها منه جزءا من محتوياتها، بالتأكيد إن العناصر المفقودة في كل مرة إعادة سوف تختلف وتتباين، إلا أنك وعن طريق تكرار الرسالة تستطيع تجميع العناصر المفقودة وترتيب الرسالة كاملة اعتمادا على تكرارها.

مثال تقريبي آخر: لو أن أحدهم جاءنا بسلسلة من الأرقام الصحيحة مثل: (1-2-4-8-7... 2-3-4-6-8.... 1-4-5-7-8... 1-2-5-7.... 3-4-5-6-8)

وطلب منا توزيع هذه الأرقام بحيث يندرج كل الـ 1.. وكل الـ 2... وكل الـ 3...الخ، في جدول واحد. نلاحظ أنه في الباقة الرقمية الأولى إن العنصر (الرقم المفقود) هو الرقم 3 و5 والرقم 6، وفي الباقة الرقمية الثانية الأرقام 1 و5 و7، وفي الباقة الرقمية الثالثة العناصر المفقودة هي 2 و3 و6، وفي الباقة الرقمية الرابعة هناك أربعة عناصر

مفقودة: 3 و4 و6 و8، أما في الباقة الرقمية الخامسة فإن الأرقام المفقودة ستكون 1 و2 و7.

كل باقة رقمية واحدة يمكن تمثيلها بأنها رسالة أو تنويعة روائية واحدة. ففي كل رسالة أو تنويعة روائية نفتقد بعضا من العناصر، ولكن عن طريق تجميع هذه الباقات الرقمية أو الروائية من خلال عمليات التمثيل والاستعاضة والتبديل سوف نكتشف العناصر المفقودة في شكل علاقات[38].

سنرتب المثال بهذه الطريقة:

1... 2... ؟... 4... ؟... ؟... 7... 8

؟... 2... 3... 4... ؟... 6... ؟... 8

1... ؟... ؟... 4... 5... ؟... 7... 8

1... 2... ؟... ؟... 5... ؟... 7... ؟

؟... ؟... 3... 4... 5... 6... ؟... 8

كما هو مبيّن هناك خمسة صفوف وثمانية أعمدة، كل صف يمثل تنويعة روائية للأسطورة نفسها، أو تلك الرسالة التي أردت إيصالها لذلك الشخص الذي يقف في الجهة المقابلة لجهتي، كذلك في كل تنويعة روائية أو رقمية تلاحظ فقدان بعض من عناصر الرواية أو الأرقام. نحن بإمكاننا أن نكتشف تلك العناصر المفقودة من الرواية وذلك من خلال عمليات التمثيل والاستعاضة العمودية بحيث نستغني مؤقتا عن الترتيب الأفقي.

نجعل كل (عمود) رزمة واحدة، أي باقة كبيرة علائقية أو ما عمدنا إلى تسميتها بـ(الوحدات المؤلفة الكبيرة). فرقم (1) هو علاقة، وكذلك كل رقم (1) أو (استفهام) هو

علاقة تجاوزا. نجعل هذه (الواحدات) في رزمة واحدة نكتشف العلاقة بينها ضمن وحدة إئتلافية كبيرة وسمينة، وهكذا نعمل مع بقية الأعمدة، بعد ذلك نقرأ الرواية من اليمين إلى اليسار بشكل أفقي، حتى الوصول إلى النتيجة ومعنى الراوية.

إن الترتيب العمودي للرواية هو ما يقصده "ستروس" بـ المنهج التزامني، والترتيب الأفقي ما كان يعنيه بالمنهج التزمني الذي يتعلق برواية الأسطورة الواحدة، أما إذا تعلق الأمر بأكثر من أسطورة فإن قراءتها وفقا للترتيب الأفقي سيفقد معناه، بحيث إن القراءة الأفقية ستكون تزامنية إذا اعتمدت التحليل العمودي باعتباره كلا متكاملا، وهكذا فإن القراءة العمودية والقراءة الأفقية بعدها هما ما يشكلان أصل التحليل البنيوي.

تحليل أسطورة أوديب

سوف نتبع ذات الطريقة في التحليل بالنسبة للمثال السابق ونطبق نفس المنهجية على أسطورة أوديب الشهيرة. طبعا وكما هو معلوم أن هناك أكثر من رواية لأسطورة أوديب، وكل رواية تأتي بصيغ وعبارات تختلف عن الرواية الأخرى، لكن كل هذه الروايات هي تمثل أسطورة أوديب بلا شك. لو نأتي مثلا بتسعة روايات لنفس الأسطورة (أسطورة أوديب)، ونقوم بتحليلها فعلينا أن نتبع التقنية التالية في التحليل وكما أسلفنا:

تحلل كل أسطورة تحليلا مستقلا ولكن بمنهجية مقارنة، مع محاولة التعبير عن تتابع الأحداث بأقصر الجمل الممكنة، ثم تدوّن كل جملة على بطاقة تحمل رقما يطابق مكانها في الحكاية، يلاحظ عندئذ أن كل بطاقة تتألف من تخصيص محمول لموضوع، بعبارة أخرى؛ كل وحدة توليف كبيرة لها طبيعة علاقة.

الآن علينا تطبيق المنهجية البنيوية في التحليل وكما هو موضح في مثال الأرقام علما إن اختيار الأحداث هو اختيار اعتباطي:

(قدموس يبحث عن أخته أوروبا) (....عمود رقم 2...) (...عمود رقم 3....) (....عمود رقم 4.....)

(.....عمود رقم 1.....) (.....عمود رقم 2.....) (قدموس يقتل التنين) (.....عمود رقم 4.....)

(...عمود رقم 1....) (السبارتوي يبيدون بعضهم بعضا) (.....عمود رقم 3.....) (....عمود رقم 4....)

(....عمود رقم 1....) (...عمود رقم 2...) (....عمود رقم 3...) (لابداكوس والد لايوس= أعرج)

(....عمود رقم 1....) (أوديب يقتل أباه لايوس) (....عمود رقم 3....) (لايوس والد أوديب= أعسر)

(....عمود رقم 1....) (...عمود رقم 2.....) (أوديب يقضي على السفنكس) (.....عمود رقم 4.....)

(أوديب يتزوج أمه جوكاست) (.....عمود رقم 2....) (....عمود رقم 3....) (أوديب= ذو قدم متورّمة)

(.....عمود رقم 1.....) (إيتوكل يقتل أخاه بولينيس) (....عمود رقم 3....) (.....عمود رقم 4....)

(أنتيجون تقتل أخاها بولينيس) (....عمود رقم 2....) (.....عمود رقم 3....) (....عمود رقم 4....)

هكذا يكون لدينا أربعة أعمدة عامودية يشتمل كل منها على عدة علاقات تنتمي إلى نفس الباقة. فلو طلب منا أن نروي الأسطورة فإننا لا نأخذ وضعية الأعمدة بعين الاعتبار، أي لصرفنا النظر عن الترتيب في أعمدة ولقرأنا الأسطر من اليمين إلى اليسار ومن أعلى إلى أسفل (مثلا نقول: قدموس يبحث عن أخته أوروبا التي اختطفها زيوس.. وقدموس يقتل التنين... والسبارتوي يبدون بعضهم بعضا... أما لا بداكوس والد زيوس فهو أعرج.... وهكذا)

أما إذا تعلّق الأمر بفهم الأسطورة فإن الترتيب التزمني (التعاقبي) من الأعلى إلى أسفل يفقد وظيفته وتتم القراءة من اليمين إلى اليسار عمودا بعد آخر فنتناول العمود الواحد باعتباره كلا.

إن جميع العلاقات المنضوية تحت عمود واحد تشكل –من حيث المبدأ- سمة مشتركة ينبغي استخلاصها، فنقول مثلا إن السمة المشتركة للعمود الأول تقوم على **إفراط في تقدير صلات القرابة** أي علاقات قرابة مبالغ في تقديرها. أما العمود الثاني فيعبر عن العلاقة ذاتها وإنما من حيث خضوعها للعكس أي: **استهانة أو تفريط فيصلات القرابة** بمعنى علاقات قرابة مقدرة بأقل من الحقيقة أو منقوصة.

أما العمود الثالث فيتعلق بالوحوش والقضاء عليها، وهو يعني –كما يقول ستروس- **نفي التولد الذاتي للإنسان** من جوف الأرض. إذ يعتقد "ستروس" إن هذه الوحوش تعمل على إيقاف تولد الإنسان ذاتيا بالرغم من هزيمة الوحوش في النهاية على أيدي البشر. أما العمود الرابع فإن السمة المشتركة بين عناصره هي **استمرارية التولد الذاتي للبشر**، أي عكس العمود الثالث.

وينتج عن ذلك: إن علاقة العمود الرابع بالعمود الثالث هي ذات علاقة العمود الأول بالعمود الثاني. وهكذا تم التغلب على استحالة الربط بين مجموعات علاقات من خلال التأكيد على أن العلاقتين المتناقضتين متماهيتنان باعتبار أن كلا منها متناقضة مع نفسها شأنها شأن الأخرى.

ما الذي تعنيه أسطورة أوديب إذا نحن اجتهدنا في تأويلها؟! إنها تعبر عن تعذر أو "الاستحالة التي يقع فيها مجتمع ينادي بتولد الإنسان ذاتيا... حين يريد الانتقال من هذه النظرية إلى الاعتراف بأن كلا منا قد ولد في حقيقة الأمر من اقتران رجل بامرأة"[39]. وتصل في النهاية: إن الإفراط (المبالغة) في تقدير صلات الرحم هو بالنسبة للتفريط في تقديرها مثل الجهد المبذول للتخلص من عقيدة التولد الذاتي من استحالة تحقيق هذا التخلص. يقول ستروس: إذا كانت الأسطورة تتألف من مجمل منوعاتها، فإن على التحليل البنيوي أن ينظر إلى هذه القراءات جميعا على قدم المساواة وأن يدرسها كلها بالطريقة ذاتها، وإن كل رواية عن الأسطورة هي رواية صحيحة وعلينا أن لا نهملها أو

نتجاهلها، ولا توجد رواية مرجعية أو مصدرية، بل كل الروايات تحمل ذات الأهمية من التأثير[40].

تحليل "ليفي ستروس" لأسطورة الوينباغو:

نشر عالم الانثربولوجيا الأمريكي "بول ريدن" أربع أساطير من شعب الوينباغو الهندي كان قد جمعها تحت عنوان (ثقافة الوينباغو: كما وصفوها بأنفسهم عام ١٩٤٩ The Culture of the Winnebago's Described by themselves)، وكان هدف "ليفي ستروس" هو إثبات أن هذه الأساطير تتصل ببعضها بشكل أوثق مما خطر على بال "ريدن" نفسه. وينصب التركيز على الأسطورة الرابعة بالذات، وهي أسطورة حسبها "ريدن" شاذة، وفعلا تبدو هذه الأسطورة للوهلة الأولىغريبة عن الثلاث الأخر. وفيما يلي تلخيص لهذه الأسطورة الرابعة.

كان هناك صبي يتيم، وهو صياد ماهر كأبيه، يعيش مع

جدته في طرف القرية. وقد رأته ابنة زعيم القرية ووقعت

في غرامه: "ليته يتشجع في تصرفاته معي أو يقول لي شيئا

أو يتودّد إليّ. هذا ما اشتهته بقوة. وما فكرت فيه باستمرار.

لكن الصبي كان ما يزال يافعا بعد، فلم يوجه لها كلمة واحدة

قط " وهي لم تجرؤ على الكلام، وبعد وقت طويل أمضته في

هذا الشوق الممض وقعت فريسة المرض وماتت وكوّموا التراب

على قبرها حتى لا يتسرب منه شيء.

قرّر الزعيم الذي برج به الحزن أن ينتقل مع سكان القرية

كلهم إلى مكان يبعد مسيرة عدة أيام. لكن الصبي اليتيم لم يرغب في الذهاب معهم خشية ألا يكون الصيد بالجودة نفسها هناك. فبقي بعد الاستئذان من الزعيم هو وجدته للعناية بقبر ابنة الزعيم، وكان هذا قد طلب قبل الرحيل أن تغطي أرضية بيتهم بالتراب للحفاظ على الدفء.

أخذ اليتيم ولم يكن قادرا "على اقتياد الحيوانات بعيدا بعد " يصطاد في المنطقة المجاورة، ويتفادى القرية القديمة. وفي ليلة من الليالي، مرّ بعد أن عاد متأخرا من الصيد لأنه لاحق طريدة جريحة أبعد من المعتاد، مرّ من وسط القرية فلاحظ ضوءا في بيت الزعيم القديم. وهناك رأى شبح ابنة الزعيم الذي أخبره بسبب موتها وأضاف: "متُّ بسبب تصرفاتي ولكن شبحي لم يذهب بعد حيث تذهب الأشباح. أرجوك ساعدني.. هذه المرة " وقالت إنه لا بد لكي يعيدها إلى الحياة من أن يخضع لامتحان: يجب عليه أن يمضي أربع ليال في بيت الزعيم. وعليه كل ليلة أن يقاوم النوم برواية القصص أمام نار عارمة. وإذا ما شعر بالنعاس

واضطجع فإنه سوف يحسّ وكأن شيئا يزحف على جسده، ولكن ما يزحف ليس حشرات. يجب ألّا يمد يده ليحك الجزء الذي يحكه قطعيا ". ومع أن الأمر كان يزداد صعوبة كل ليلة، إلّا أن الصبي اليتيم نجح في الامتحان. وتركته الأشباح التي كانت تعذبه واستطاع أن يعيد الفتاة إلى الحياة وأن يصطحبها إلى بيته ويتزوجها.

وعندما سمع القرويون بالنبأ عادوا إلى قريتهم. ولم يطل الأمر بالزوجة الشابة قبل أن تضع مولودا ذكرا. "وعندما كان الصبي قادرا على إطلاق الأسهم الحقيقية تحدث الزوج قائلا لزوجته: "رغم انني لم أشخ بعد إلا أنني قضيت على الأرض كل المدة التي أستطيع... لكنني لن أموت كما مت. كل ما هنالك أنني سأعود إلى موطني هكذا ". لكنها اختارت أن تذهب معه، فتحول الاثنان إلى ذئبين عاشا تحت الأرض. وهما يعودان أحيانا إلى هذه الأرض ليباركا هنديا أثناء صيامه[41].

هنا يبدو، كما يبدو في كثير من الأحيان في الأساطير أن الأحداث يتبع بعضها بعضا دون أن تنبع الحادثة من الأخرى: أي أن العلاقة السببية ضعيفة، فالكثير من التفاصيل (وأكثر منها في النص الكامل) يبدو أنها غير ضرورية. وقد مال دارسو

الأساطير حتى وقت قريب إلى الاعتقاد بأنا لأساطير غير محكمة الحبك فعلا وتتشكل من رتوش تجميلية إلى حد بعيد، لكن "ليفي ستروس" يعارض هذا الرأي بقوله إن هناك في الأسطورة من **البنية** أكثر مما فيها من أحداث تتابع، هناك **نظام من المطابقات** بين عناصر الأسطورة إضافة إلى ما فيها من تتابع زمني.

نجد إذن في هذه الأسطورة أن الصبي اليتيم وابنة الزعيم يقفان على طرفي نقيض من السلم الاجتماعي، ولكنهما من الناحية الطبيعية، فيما يرى "ليفي ستروس"، يقفان موقفين متعاكسين: فالفتاة "عاجزة من حيث القدرة على التعبير عن المشاعر": إنها "مخلوقة ناقصة تفتقر إلى صفة الحياة الأساسية". أما الفتى "فهو صياد خارق، أي أنه يرتبط بعلاقات متميزة مع العالم الطبيعي، وعالم الحيوانات".

لذا فقد نزعم إلى أن الأسطورة تجابهنا في واقع الأمر بنظام تقابليPolar يتشكل من فردين، ذكر وأنثى، كل منهما متميز من حيث أنه يتفوق في الجانب الذي يفتقر إليه الآخر... وتتكون الحبكة من تطوير هذا الاختلال إلى مداه المنطقي الأقصى، فالفتاة تموت ميتة طبيعية، ويبقى الفتي وحيدا،أي أنه يموت ميتة اجتماعية... وينعكس موقعهما بحيث تصبح الفتاة أدنى (في قبرها) والفتى أعلى (في بيته).

ويتأكد هذا التقابل الأخير بتلك الإشارة الزائدة عن اللزوم ظاهريا،وهي الإشارة الخاصة بالتراب المكوّم فوق القبر في الحالة الأولى وعلى أرض البيت في الحالة الثانية، وهي "إشارة تؤكد أن الفتى فوق والفتاة تحت بالنسبة لسطح الأرض أي للتراب"." لكن هذا التوازن الجديد لا يدوم أكثر مما دام الأول، فتلك التي لم تتمكن من الحياة لا تتمكن منالموت، فشبحها يبقي "على الأرض" أما الفتى فسيلاقي بتناظر رائع مصيرا شبيها، رغم أنه مقلوب، بعد سنوات قليلة.... فذلك الذي انتصر على الموت يجد نفسه عاجزا عن الحياة ".

يقول "جون ستروك": "أن تحليل ليفي شتراوس ليس هو التحليل الليفي شتراوسي الوحيد الذي يمكن إجراؤه على الأسطورة. وأنا أجد بعض افتراضاته غير مقنعة: فخجل الفتاة فيما يتعلق بالتعبير عن مشاعرها ليس من الضروري أن يعتبر نقصا طبيعيا. كذلك ليس هنالك في النص ما يبرر زعم ليفي ستروس بأن الفتى صياد "خارق": فهو لا يأتي بأفعال صيد خارقة للعادة، ولا يستطيع حتى "أن يقتاد الحيوانات بعيدا"، ولا يمدحه أحد على أنه صياد متميز. ولذا فإن التعارض بينه وبين الفتاة من حيث مواهبها الطبيعية يبدو مبالغا فيه، كذلك قد يكون إطلاق تعبير "الموت الاجتماعي" على بقاء الفتى اليتيم وحيدا مع جدته من قبيل فرض استعارة غريبة على طريقة التفكير لدى شعب الونيباغو"[42].

ويضيف "ليفي ستروس" إلى ذلك قوله (مع شيء من المبالغة) "إن كان الهدف النهائي للانثربولوجيا هو أن تسهم في التوصل إلى معرفة أفضل بالفكر المتصف بالموضوعية وآلياته فليس من المهم في نهاية المطاف.. إن كانت عمليات التفكير... لدى الهنود الأمريكيين تنضج من خلال تفكيري أو إن كانت أفكاري تحدث من خلال واسطة تفكيرهم".

لقد أثبت دارسو الأساطير منذ زمن بعيد وجود تشابهات قوية بين الأساطير المختلفة، واحتدم الجدل بينهم حول ما إذا كانت أوجه الشبه هذه تدل على وجود أصول مشتركة لها، أو على مراحل متطابقة على سلم التطور الثقافي، أو على مقولات كلية تنطبق على الذهن البشري، وأولى الإضافات التي قدمها "ستروس" إثباته أن التشابهات ليست هي العلاقات الوثيقة الوحيدة التي توجد بين الأساطير، فالشبه نوع واحد فقط من العلاقة المنتظمة بينها، والتعاكس نوع آخر، فبعض الأساطير تتصل بغيرها عن طريق اختلافها عنها اختلافا منتظما.

كذلك يرى "ليفي ستروس" أن الأساطير يجب ألا تحلل واحدة واحدة بوصفها جزءاً من مجموعة أساطير مترابطة. وبذا لا تبرز بعض النواحي من الأسطورة التي حللناها

لتونا إلا إذا أخذنا في الاعتبار أسطورة أخرى من أساطير الونيباغو، وهي الأولى في مجموعة "ريدن".

وفيما يلي تلخيص لها:

قضى ابن أحد الزعماء وقته صائما "ليحصل على قوى تهبه

إياها تلك الكائنات المختلفة المدعوة بالكائنات المقدمة...

واستطاع بعد مدة أن يقيم علاقة صداقة حميمة Bond-relationship

وأحب صديقه حبا جما .. وفي يوم من الأيام

قيل لابن الزعيم إن جماعة من المحاربين ينوون الخروج

ومنع من البوح بالسر. لكنه أخبر صديقه الحميم وانضم

كلاهما إلى المحاربين. وقاتل الصديقان قتال الأبطال فاحتفى

بهما القرويون عند عودتهما. وصارا محاربين عظيمين

وتزوجا وذهبا للعيش في منزليهما بعيدا عن القرية، وكان

كلما أتيا للقرية "تلقيا عناية فائقة. فقد استفادت القرية

من هذين الصديقين فائدة عظمى بسبب براعتهما في

الحرب، فأغدقت عليهما كل مظاهر التبجيل والتكريم.

وبينما هما على وشك الخروج في يوم من الأيام في حملة

تأخذهما بعيدا من أجل القرية وقعا في كمين وقتلا بعدما

أبليا بلاء حسنا. فعاد شبحاهما للقرية لكنهما فزعا عندما وجدا أنهما يخفيان عن الأنظار. ثم حضرا حفل التأبين الذي جرى لهما لأربع ليالٍ، غادرا بعدها في رحلة نحو أرض الأشباح. وقد بلغ من تأثر صديق ابن الزعيم بحزن أهل القرية أنه أصر على إيجاد طريقة للعودة. فقال ابن الزعيم إن ذلك لن يتم إلا إذا نجحا في امتحان خلال الرحلة. وانطلقا إلى أن وصلا أول قرية من قرى الأشباح.

فاستقبلا هناك استقبالا رائعا من قبل رجال ونساء يتصفون بالجمال. ظلوا يرقصون حتى انقضى الليل. أولا إن ابن الزعيم حذر صديقه: "لا تنهض للرقص معهم. إذا نهضت فلن تحقق مبتغاك". وتكرر ذلك على مدى الليالي الأربع، وكان الأمر أصعب في كل ليلة من سابقتها. ثم تكررت ليالي الرقص الأربع في ثلاث قرى أخرى. وكانت مقاومة إغراء الرقص تزداد صعوبة. إلا أن الصديقين نجحا في النهاية وتمكنا من السفر إلى بيت صانع الأرض الذي أعطاهما حرية اختيار المكان الذي يريدان العيش فيه، فاختار قريتهما الأصلية وولدا من جديد، كل مع عائلته. "ثم عادا فالتقيا

بعد مرور الوقت وتعرفا على بعضهما رغم أنهما كان رضيعين

ورغم أنهما كان محمولين من قبل الآخرين.. وقد سرهما

هذا التعرف أيّما سرور... وعندما كبرا كررا ما كانا صنعاه

في فترة وجودهما السابقة[43].

ما علاقة هذه الأسطورة بتلك التي ذكرناها سابقا؟ هناك في كل منهما موت وبعث، ولكن يبدو أن التشابه ينتهي عند هذا الحد.فالشخصيات والظروف والجو العام في كل منهما يبدو أنها تختلف عمّا في الأخرى. لكن النظرة المدققة تبين أن هذه الاختلافات العشوائية في الظاهر تتبع نظاما من التعارضات المتناظرة.

لا يختلف الجو العام في إحدى الأسطورتين عن الجو العام في الثانية فقط، بل يتعارض معه. فالبطلان في الأسطورة الأولى يستسلمان لقدرهما، أما في الثانية فيجعلانه أحسن حتى مما هو. وهما في الأولى بطيئان جدا: الفتاة في الكلام والفتى في النضج، وكلاهما تنقصه القدرة على الحركة. أما في الثانية فهما محاربان (أي أنهما "رجلان حقيقيان" بمعايير شعب الونيباغو) مع أنهما أصغر من أن يضمّا بشكل اعتيادي إلى مجموعة المحاربين كما أن نموهما الأخلاقي والجسماني سريع جدا، وهما يتصفان بقدرة فائقة على الحركة، ويختاران أن يعيشا بعيدا عن القرية وأن يشتركا بحملات تأخذهما بعيدا. والأسطورتان تتصفان بأنهما دورتان، ولكن الدورة في الأولى تسير من جيل إلى جيل (فالفتى اليتيم يخلف وراءه طفلا يتيما آخر)، أما في الثانية فإن البطلين السعيدين هما اللذان يبدآن حياتهما من جديد. والجو العام في الأسطورة الأولى هو بشكل عام بطيء حزين خافت بينما هو في الثانية سريع، مرح، منتصر.

ومن الممكن التعبير عن علاقات الشبه والتعاكس بين الأسطورتين بشكل مجدول كما يلي:

-تقع ابنة الزعيم بالحب

-يتخذ ابن الزعيم صديقا

-تحافظ على صمتها حيث يجب أن تتكلم

-يتكلم حيث يجب أن يصمت

-لذلك تتعذب وتموت

-لذلك يحاربان ويقتلان

-يترك القرويون البطل وحده ويذهبون للعيش بعيدا

-يترك البطلان القرويين ويذهبان ليعيشا بعيدا

-يجد البطل نفسه مرة مضطرا ليبتعد أكثر من اللازم ليصطاد فريسته

-يجد البطلان نفسيهما مرة على وشك الابتعاد كثيرا فيقتلان

-يعود البطل من خلال القرية ويرى شبح البطلة

-يعود البطلان إلى القرية ولكنهما لا يريان

-لا بد للبطل حتى يعيد البطلة إلى الحياة من أن يمرّ في امتحان طوله أربع ليال في البقعة نفسها

-لا بد للبطلين حتى يعودا إلى الحياة من أن يمرّا في امتحان طوله أربع ليال في أماكن مختلفة

-يتشكل الامتحان من مقاومة إغراء التخلص من الأشباح المعتدية التي لها

أشكال غير إنسانية منفرة وسلوك منفر

-يتشكل الامتحان من مقاومة إغراء الانضمام إلى أشباح لطيفة لها أشكال

إنسانية وسلوك إنساني

-ينجح البطل وتبعث البطلة ويعود القرويون إلى قريتهم

-ينجح البطلان ويعودان إلى قريتهما

-يخلف البطلان طفلا

-يولد البطلان ثانية على هيئة طفلين

-لا يستطيع البطلان العيش رغم ذلك البعث، فيتحولان إلى روحي ذئبين

يحميان الصائمين

-يستطيع البطلان نتيجة هذا البعث أن يعيشا حياتهما ثانية (ويرافق هذا

كثير من الصيام في حالة ابن الزعيم)[44].

هناك في كلا الأسطورتين شخصيات وأحداث غير عادية. فأبطالهما لا يعيشون أو يموتون مثل بقية البشر. وهم يحققون نوعا من الخلود ولكن بطريقتين مختلفتين: الفتى اليتيم وابنة الزعيم بأن لا يموتا أو يعيشا تماما،والمحاربان بأن يعيشا و يموتا مرارا وتكرارا. وتشكل هذه المصائر الغريبة المتعارضة نقاطا للمقارنة يمكن من خلالها أن نفهم منها فلسفة شعب الونيباغو حول حياة البشر وموتهم.

لا يمكن التوصل إلى فهم كهذا إلا إذا درسنا مجموعات من الأساطير،لا أساطير معزولة كل منها عن الأخرى. ولا يبرز العديد من خصائص الأسطورة المنفصلة إلا

عندما توضع في علاقة مع غيرها من الأساطير. إذ يزداد إمكان كونها مصدرا للأنساق وتتحدد عندما نقارنها مع غيرها.ومهمة عالم الانثربولوجيا هي أن يلقي الضوء على هذه الإمكانية.

خاتمة

تعطينا الأساطير نظرة بالغة النفاذ في طليعة العمل العفوي للذهن البشري. وقد درس "ستروس"بهدف التوسع في هذه الفكرة ما يزيد على ٨٠٠ أسطورة من أساطير هنود أمريكا وكما كبيرا آخرا من المعلومات الاثنوغرافية في كتاب "مقدمة لعلم الأساطير" وقام بدراسة كل أسطورة من حيث علاقتها بكثير غيرها من الأساطير.

وقد استخدم "ليفي ستروس" المنهج البنيوي في دراسته للأسطورة مستعينا بمبادئ التحليل البنيوي للغويين، مستمدا عزمه في إنجاح دراسته هذه من "رومان جاكبسون". فقد كان مواظبا على حضور مجالسه الخاصة في أميركا وكذلك محاضراته العامة في الجامعة، وقد أنبهر وقتها أيّما انبهار بالصرامة العلمية التي كانت تتمتع بها اللغة ومناهجها العلمية، فقد عمد في محاولة جريئة منه إلى تطبيق تلك المبادئ على موضوعات العلم الإنساني الأخرى، وقد نجح -إلى حد ما- في إقناع مريديه، وكذلك في إعطاء لمسته الرومانسية -على الأقل- في اعتراف خصومه بجمالية ما يقوله بالرغم أن بعضهم من أمثال "ليونارد جاكسون" – الباحث اللغوي المرموق- كان يقول: بأنه لم يصدق ولا كلمة واحدة مما يقوله "ليفي ستروس"!

ان هذه الدراسة قد عُنيت -على نحو كبير- بدراسة الأسطورة دراسة بنيوية مستندة فيما تقوم به من أعمال إلى "ليفي ستروس" وتعاليمه العظيمة، وقد صاغت على أثر ذلك تعاريفا على نحو سهل يسير، وعمدت إلى بيانها على أساس الفهم العام والمشترك، لكي يتسنى فهم تلك المبادئ بالنسبة للقارئ الهاوي أو غير المتخصص.

أن موضوع البنيوية سواء كان في الأدب أو الفلسفة أو علم النفس أو الاجتماع أو في علم الإنسان يتسم بصعوبة بالغة وهذا الأمر لا يمكن اخفاءه وتحديدا للباحثين المعنيين بتلك الدراسات حتى أن تبسيط تلك المبادئ قد تكون (جريمة) كما عبر عنها "جون ستروك".

وعامة فإننا ومن منطلق الشعور بأهمية هذه الدراسة وتأثيراتها العميقة فقد عمدنا إلى محاولة التبسيط هذه على قدر المستطاع، وربما يقودني ضميري إلى الاعتراف بأنني لم أكن موفقا تماما بصياغة تبسيطية عامة ولكن من الممكن اعتبار هذه الدراسة أقصى حالة تبسيط ممكنة.

الهوامش

[1] - مصطلح في علم النفس ابتكر من قبل عالم الاجتماع الفرنسي إميل دروكايم (15 ابريل 1858 – 15 نوفمبر 1917) ليشير إلى المعتقدات والمواقف الأخلاقية المشتركة والتي تعمل كقوة للتوحيد داخل المجتمع.

[2] - **رومان جاكبسون** هو عالم لغوي وناقد أدبي روسي (11 تشرين الأول 1896- 18 تموز 1982)، من رواد المدرسة الشكلية الروسية، وقد كان أحد أهم علماء اللغة في القرن العشرين وذلك لجهوده الرائدة في تطوير التحليل التركيبي للغة والشعر والفن.

[3] - من القصائد الشعرية المشهورة لبودلير وتعد من القصائد البسيطة جدا، وهي بالفرنسية les **chats**

[4] - سونيتة: (بالإنجليزية**Sonnet**) أو الأغنية القصيرة، مشتقة من الكلمة الإيطالية**sonetto**، وهي أحد أهم أشكال الشعر الغنائي الذي انتشر في أوروبا في العصور الوسطى وكتب فيها كبار الشعراء. وتتألف من أربعة عشر بيتًا بأوزان وقواف معروفة وتركيب منطقي، اهتمت السونيتة بمعالجة بعض الموضوعات مثل الحب العفيف. تتميز السونيتة

بلغتها المكثفة وصورها البلاغية المؤثرة والتطلع إلى الكمال في صنعتها الشعرية. والمقصود بها هنا قصيدة لشكسبير.

[5] – برونيسلاف مالينوفسكي(7 نيسان 1884-16 أيار 1942)، كان عالماً بولندياً مختصاً في علم الإنسان ويعد من أهم علماء الإنسان في القرن العشرين، وهو من أهم الرواد في علم الإنسان التطبيقي.

[6]- ستروس، كلود-ليفي: الأسطورة والمعنى، ترجمة وتقديم: د. شاكر عبد الحميد. مراجعة: د. عزيز حمزة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986، ص27.

[7]- **الأسطورة** أو **الخرافة** في اللغة العربية هي الحديث الباطل الذي لا أصل له، أما (**Myth**) الانجليزية فهي قصة تدور حول شخصيات خارقة للطبيعة وتماثلها كلمة (**Legend**) وإن كانت تستخدم أيضا للقصص الشعبية ذات الأصل الروائي.

[8]- الحسن، إحسان محمد: موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان، ط1، 1999، ص55-56.

[9]- كاسير، أرنست: اللغة والأسطورة، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1، 2009م، ص10.

[10] – تالكوت بارسونز (13 ديسمبر 1902 - 8 مايو 1979) عالم اجتماع أمريكي عمل في هيئة التدريس في جامعة هارفارد منذ عام 1927 حتى عام 1973، وضع بارسونز نظرية عامة لدراسة المجتمع تسمى بنظرية السلوك، استنادا إلى المبدأ المنهجي التطوعي ومبدأ المعرفة من الواقعية التحليلية.

[11]- أبو زيد، أحمد: البناء الاجتماعي؛ مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الثاني (الأنساق)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، جامعة الإسكندرية-جامعة الكويت، 1967، ص1-3.

[12]- **الوجوديّة** تيار فلسفي ظهر في القرن العشرين، نادى بأهميَة وقيمة وجود الفرد الإنساني، وانتشر في ثلاثينيَات وأربعينات القرن العشرين، ويمكن القول بأن الوجوديَة جاءت كرّدة فعل على مساوئ الحرب العالميَة الأولى، والتي خلفت وراءها آلاف القتلى والجرحى، ممّا جعل مفكري ذلك العصر يبحثون عن فكر أو تيَار يعيد للإنسان قيمته، ويعزز أهميَة وجوده، فقاموا بنشر أفكارهم عبر المسرح، والأدب، والشعر، حتى أصبح من أشهر التيَارات الفلسفيَة الإنسانيَة في أوروبا. من أبرز مفكريها (**جان بول سارتر**) و(**سيمون دي بوفوار**).

[13]- **السين** (بالفرنسية: Siene) هو نهر رئيسي في شمال فرنسا، وأحد طرق النقل المائية التجارية. كما أنه مصدر جذب سياحي، وبالذات في مدينة باريس التي يمر عبرها.

14- **فرديناند دي سوسير** (بالفرنسية: Ferdinand de Saussure) (ولد في 26 نوفمبر 1857 وتوفي في 22 فبراير 1913)، عالم لغوي سويسري شهير. يعتبر بمثابة الأب للمدرسة البنيوية في علم اللسانيات. فيما عدّه كثير من الباحثين مؤسس علم اللغة الحديث. عُني بدراسة اللغة الهندية، والأوروبية، وقال إن اللغة يجب أن تعتبر ظاهرة اجتماعية. من أشهر آثاره: بحث في الألسنية العامة (كتبه باللغة الفرنسية ونُشر عام 1916بعد وفاته) وقد نُقل إلى العربية بترجمات متعددة ومتباينة.

[15]-ستروك، جون: البنيوية وما بعدها، ترجمة: د. محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 206، 1996، ص10-11.

[16]-المصدر نفسه، ص13.

[17]-جاكسون، ليونارد، بؤس البنيوية؛ الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2001، ص 74-91.

[18]-ستروك، جون، البنيوية وما بعدها، مصدر سابق، ص16.

[19]-جاكسون، ليونارد، بؤس البنيوية، مصدر سابق، ص129-130.

[20]- المقصود بالأنظمة الثلاث هي: **نظام القرابة، والطوطمية، ونظام الأساطير**.

[21]-ستروك، جون، البنيوية وما بعدها، مصدر سابق، ص12-13.

[22]-جاكسون، ليونارد، بؤس البنيوية، مصدر سابق، ص74.

[23]-للاطلاع أكثر يمكنك مراجعة كتاب: **الانثروبولوجيا البنيوية**، كلود ليفي-ستروس، ترجمة: د. مهدي صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977، ص 247-248. وكذلك كتاب: **الأناسة البنيانية**، كلود ليفي ستروس، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995، ص228-229. والكتاب الأخير هو ترجمة أخرى قام بها الدكتور حسن قبيسي للنص الأصلي الصادر بالفرنسية بعنوان: Anthropology Structural.

[24] -Straus, Claude levy, structural Anthropology, (Translated by Claire Jacobson and Brook Grand-fest schoepf), London: Penguin Books, 1972, P.209.

[25]-ا كلود ليفي-ستروس، الانثروبولوجيا البنيوية، مصدر سابق، ص247-248.

[26]-جاكسون، ليونارد، بؤس البنيوية، مصدر سابق، ص76.

[27]-ستروك، جون، البنيوية وما بعدها، مصدر سابق، ص13.

28-Mounin, G.levi-straus use of linguistics, in: the unconscious in culture, ed.by I, Rossi, New York Dutton, 1974, p.39-40.

[29]-كلود ليفي ستروس، الاسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص5-6.

30-Jakobson, Roman, (ed.Krystinapomorsks and Stephen Rudy), Verbal Art, Verbal Sign, Verbal Time (Oxford: Basil Blackwell).1985. P: 16.

[31]-ستروس، كلود-ليفي، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص7.

[32]- **الفونيم** هو أصغر وحدة صوتية تستعمل في بناء الكلام، وتؤثر فيه، بحيث لا يمكن استبدالها بفونيم آخر دون تغير في المعنى، لذا قد يحمل الفونيم الواحد عدة تأديات في لغة واحدة، قد تشكل هذه التأديات فونيمات مختلفة في لغات أخرى. ومن ذلك . على سبيل التمثيل في العربية . حرفُ الهجاء "ص " يتميَّزُ عن حرف الهجاء " س " في كلمتين "صارَ "و"سارَ " فيكون صوت الصاد متمايزا عن صوت السّين لأن اختلاف الكلمتين في المعنى يرجع إلى هذا الاختلاف بين صوتي الحرفين.

[33]-ستروس، كلود-ليفي الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص6.

[34]- Maquet, J. Isomorphismanf symbolism as "explanation" in the analysis of myths in: the unconscious in culture Ed. By I. Rossi; New York: 1974, p.123.

[35]-يتيم، عبد الله عبد الرحمن: دفاتر انثروبولوجية؛ سير وحوارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 2004، ص107.

[36]- **أوديب**هو ملك طيبة في الميثولوجيا الإغريقية، حقق النبوءة التي قالت انه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه، وبالتالي يجلب الكارثة لمدينته وعائلته.

[37]-يتيم، عبد الله عبد الرحمن، دفاتر انثروبولوجية، مصدر سابق، ص31.

[38]-راجع ستروس كلود ليفي، الانثروبولوجيا البنيوية، مصدر سابق، ص252.

39-ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، مصدر سابق، ص142.

[40]-ستروس، كلود ليفي، الانثروبولوجيا البنيوية، مصدر سابق، ص 253-257.

[41]-ستروك، جون البنيوية وما بعدها، ص43-45.

[42]-المصدر نفسه، ص46.

[43]-المصدر نفسه، ص47-48.

[44]-المصدر نفسه، ص49-50.

مصادر البحث

المصادر العربية:

1-الحسن، إحسان محمد: موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان، ط1، 1999.

2-أبو زيد، أحمد: البناء الاجتماعي؛ مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الثاني (الأنساق)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، جامعة الإسكندرية-جامعة الكويت، 1967.

3-جاكسون، ليونارد ، بؤس البنيوية؛ الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2001.

4-ستروس، كلود-ليفي: الأسطورة والمعنى، ترجمة وتقديم: د. شاكر عبد الحميد. مراجعة: د. عزيز حمزة ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986.

5-ستروس، كلود-ليفي: الإناسة البنيانية، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995.

6-ستروس، كلود-ليفي: الانثروبولوجيا البنيوية، ترجمة: د. مهدي صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977.

7-ستروك، جون: البنيوية وما بعدها، ترجمة: د. محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 206، 1996.

8-كاسير، أرنست: اللغة والأسطورة، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1، 2009م.

9-يتيم، عبد الله عبد الرحمن: دفاتر انثروبولوجية؛ سير وحوارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 2004.

المصادرالأجنبية:

1-Jakobson, Roman:(ed.Krystinapomorsks and Stephen Rudy), Verbal Art, Verbal Sign, Verbal Time (Oxford: Basil Blackwell).1985.

2-Maquet,J. Isomorphismanf symbolism as "explanation" in the analysis of myths in: the unconciaus in culture ed. By I. rossi; new York: 1974.

3-Mounin, G.levi-straus use of linguistics,in:the unconscious in culture,ed.by I, Rossi, new York Dutton, 1974.

4-straus, claudelevi, structural Anthropology, (Translated by Claire Jacobson and Brook Grund-fest schoepf), London: Penguin Books, 1972.